اللغة والدين والتقاليد

في حياة الاستقلال

بقلم

زكي مبارك

دكتور في الآداب من الجامعة المصرية ومن جامعة باريس
وحائز دبلوم الدراسات العليا في الآداب
من مدرسة اللغات الشرقية في باريس

الإهداء

الى فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى

أُهدى هـــذه الصحائف ، تحيةً من رجل يضمر له أصدق الودّ ، ويعرف فضله فى إعزاز اللغة والدين وخمود التقاليد ؟

المخلص

محمد زكى عبد السلام مبارك

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على جميع الأنبياء والمرسلين

أما بعد فهذا بحثٌ أدرْتُ معانيه فى ذهنى أسبوعين ، ثم كتبته فى سهرتين . وأنا أقدمه الى الجمهور قبل أن أقدمه الى لجنة التحكيم فى المباراة الأدبية ، أقدمه سَمْحاً سهلاً كما فاض به الطبع بلا تَوْشِيةٍ ولا تنميق

ولم يكن كل همى حين أنشأته أن أظفر بالجائزة الأولى وهي مرصَّعة بمئة دينار تعود على مثلى بأجزل النفع ـ وانما كان أكبر همى أن تصل بعض آرائى الى آذان قومى ، وهذا مَغْنَمٌ ليس بالقليل

وإني أعتذر عما اصطنعت من الإيجاز ، فقد ضاق الوقت ، وصرفتني الشواغل عما كنت أريد من الاطناب وجهدُ المقلِّ غيرُ قليل

زكي مبارك

مصر الجديدة في { ١٢ المحرم سنة ١٣٥٥
٤ ابريل سنة ١٩٣٦

اللغة والدين والعادات

باعتبارها من مقومات الاستقلال

— ١ —

الدين واللغة والعادات من الظواهر التي يتصل بعضها ببعض أشد اتصال . ومن المؤكد أن اللغة تخضع في بعض ألوانها للدين والعادات ، وقد يكون في صورها القديمة ما يؤثر في الدين والتقاليد . وهذه الظواهر الثلاثة تبدو مختلفة بعض الاختلاف ، ولكنها عند التأمل ترجع الى أصل واحد هو التعبير عن الخلائق الأدبية : فاللغة مظهر من مظاهر الأناقة والدقة في الافصاح ، والدين صورة العقيدة التي يحيا بها الناس ، والعادات مظاهر لما تأصل من كريم الشمائل والخلال

فالانسان المهذب تقوم حياته الأدبية على لسان فصيح

ودين حق ، وعادات كريمة تصل بينه وبين الأقربين من إخوانه فى الوطنية ، وقد تسمو فتصل بينه وبين الأبعدين من اخوانه فى الانسانية

— ٣ —

ونريد فى هذا البحث أن نخص كل عنصر من هذه العناصر الثلاثة بشئ من البيان فنقول :

اللغة فى ذاتها شخصية استقلالية . فالذى يعبر بلغته يشعر بالقوة وتنطبع نفسه على حب الكرامة والاستقلال ويزيد هذا المعنى وضوحاً ما نشعر به حين نضطر ونحن فى بلادنا الى التفاهم مع بعض الأجانب بغير العربية فاننا حين ذاك نشعر بالتخلف ، ونوقن بأن سلطاننا فى العالم سلطان ضعيف ، فقد يجىء الأجنبى الى مصر ثم تمضى عليه الشهور والأعوام بدون أن تقهره الظروف على تعلم العربية ، ويكون معنى ذلك أن مصر ليست ملكاً خالصاً للمصريين

فان الرجل لا يستطيع أن يتخذ باريس أو لندن أو برلين مُقاماً بدون أن يتعلم العربية ، لأن فى القاهرة عصبيات أجنبية لها مدارس ومكاتب وجرائد ومسارح ومنتديات ، ويستطيع الفرنسى أو الانجليزى أن يعيش فيها سنين عددا وهو لا يتكلم غير الفرنسية أو الانجليزية ، وهو يستطيع بقوته الاستقلالية أن يقهر المصريين على مخاطبته بلغته الأصلية ، ثم لا يستطيعون هم أن يقهروه على مخاطبتهم باللغة العربية

أليس هذا من أنصع الدلائل على أن اللغة فى ذاتها شخصية استقلالية ؟

لقد كنت آسى كلما تذكرت تقصيرى فى تعلم الانجليزية ، ثم مرت ظروف حمدت فيها ذلك الجهل ، لأنه على قبحه كان عنواناً على الشخصية الاستقلالية . وتفصيل ذلك أنى أقمت عدداً من السنين فى باريس ، وكنت ألتقى

فيها ناساً من النمسويين والبولونيين والهولنديين والألمان فكان يتفق أحياناً أن يجرى ذكر اللغة الانجليزية فكنت أعلن أنى أجهلها كل الجهل ، فكانوا يقولون : وكيف يصح ذلك ومصر فى قبضة الانجليز ؟ فكنت أجيب : إنكم واهمون ، إن مصر ليست فى قبضة الانجليز وانما هي ملك لأبنائها الصناديد ، واللغة الانجليزية فى مصر لغة أجنبية يرغب فيها من يشاء ، وآية ذلك أنى أحمل أكبر الألقاب العلمية ، بدون أن أتعلم الانجليزية

— ٣ —

ومن أعراض الشخصية الاستقلالية فى مصر ما نشهده فى المصالح والدواوين من كتابة أسماء الغرف والحجرات بلغة دخيلة تزاحم اللغة القومية بلا تحرج ولا استحياء ، فان تلك الكلمات تشعرنا دائماً بأن لنا فى الوطن شركاء ، وأن لغتنا لا تملك السيطرة والاستقلال ، وقد اتفق أن

رأيت فى بعض قطارات فرنسا كلمات انجليزية بجانب الكلمات الفرنسية فدهشت ، ثم سألت عن السر فى ذلك فعرفت أنه لم يقع تلطفا مع الانجليز ، وانما وقع تألفا للسائحين من الأمريكان ، وهو لم يقع إلا فى القطارات التى تسيرها الشركات ، أما قطارات الدولة فهى كمصالح الدولة لا تكتب فيها كلمة أجنبية على الاطلاق

— ٤ —

قد يقال : وأين نحن من فرنسا ؟ ونجيب بأن فكرة الاستقلال خليقة بأن توحى إلينا التشبه بكرام المستقلين ، والذى عرض هذا الموضوع للمباراة لم ينس أن يشير إلى أن للكاتب « مطلق الحرية فيما يبدى من آراء ومقترحات » وأخشى أن أخون الواجب إن قصرت فى تذكير الحكومة بواجبها فى الاكتفاء بالكلمات العربية فى جميع المصالح والدواوين ، ولست أزهد فى إرشاد من يقف على دور

الحكومة من الأجانب فأضن عليهم ببعض ما يعرفون من الكلمات ، لا ، وإنما هى مسألة قومية لا يُفرّط فيها إلا من يستهين بما اصطلح عليه الناس من شارات الاستقلال

ولنفرض أننا نكتب أسماء الغرف والحجرات بكلمات أجنبية لنرشد الأجانب ، فكيف يجوز أن نفترض أن الأجانب لا يكونون إلا من الانجليز ؟ إن فى الدنيا أمماً كثيرة شرقية وغربية ، ولمصر مع الشرق والغرب صلات فكيف صح عندنا أن الانجليز هم وحدهم الجاهلون باللغة العربية ، وأنهم الخليقون بالعطف والاشفاق ؟ ؟

ومن المحزن أن هذه البدعة السيئة انتشرت فى جميع المدن المصرية ، حتى حىّ الأزهر الشريف ، فأمام مسجد الحسين بائع (فول مدمس) زين واجهة المطعم بكلمات انجليزية

أتكون الصراحة التي دعانا إليها رئيس الحكومة فرصة لتذكير أولئك الغافلين بأنهم يجرحون القومية ويؤذون الاستقلال

قلتم إن التفضيل في المباراة سيكون « للرسالة العملية النتائج » فأسرعوا غير مأمورين بدعوة الموظفين والجمهور إلى احترام اللغة العربية احتراماً يجعلها بلا مزاحم ولا شريك في المصالح والمتاجر والدواوين ، ابدأوا أنتم باحترام اللغة في جميع دور الحكومة وسترون كيف يتبعكم سائر الناس

— ٥ —

اللغة من مقومات الاستقلال ؟

كذلك يقول صاحب الدولة رئيس الوزراء

إذن ما رأيكم في لغة التعليم ؟

إن التعليم عند المستقلين يجب أن يكون باللغة القومية لغة الآباء والأجداد ، ومن العسير أن نجد في الدنيا أمة

مستقلة تصطنع فى التعليم لغة أجنبية

أما مصر العزيزة فقد قسمت إلى مناطق . منطقة ضعيفة تسود فيها اللغة العربية وهى المدارس الابتدائية والثانوية ، ومنطقة قوية تسود فيها اللغة الفرنسية وهى كلية الآداب وكلية الحقوق ، ومنطقة أقوى تسود فيها اللغة الانجليزية ، وهى كليات الطب والهندسة والعلوم

ومناصب التعليم فى المدارس العالية أكثرها للاجانب وهى بلية لا تصبر عليها أمة تسمو إلى كرامة الاستقلال

إن الأمم الحرة لا تعطى مناصب التعليم غير أبنائها ، واللغات الأجنبية ذاتها لا يُدَرِّسها الأجانب وإنما يُدَرِّسها الوطنيون ، ففى فرنسا مثلا أساتذة اللغات الأجنبية كلهم فرنسيون . ومن أجل هذا تملك فرنسا طائفة كبيرة من النوابغ فى اللغات الأجنبية ، أما فى مصر فيندر أن تجد من يتفوق فى لغة أجنبية ، لأننا نتعلم اللغات لغاية محدودة هى

الاستفادة من المؤلفات . ولو كان لنا مستقبل فى تعليم اللغات الأجنبية لتبدل الحال غير الحال ، وشعر شبابنا بأن لهم مصالح يخلقها التفوق فى اللغات ، وكان ذلك حجراً فى بناء الاستقلال

لا أريد أن يجرفنى الاستطراد ، فلأرجع مسرعا إلى ما كنت فيه ، وأنا أقرر أن لغة التعليم فى كليات الجامعة المصرية يجب أن تكون العربية ، وأقول بصراحة : إن اللغة الانجليزية لم تَسُدْ فى كليات الطب والهندسة والعلوم لسبب معقول ، إنهم يزعمون أن اللغة العربية تعوزها المصطلحات العلمية ، وهذا وهم ، أو هو عجز يُستترُ بهذا الوهم المصنوع ، فالمصطلحات العلمية لم تكن مما تفردت به الانجليزية أو الفرنسية ، وإنما هى ألفاظ نُحِتَتْ نحتاً من اليونانية واللاتينية ، وفى مقدورنا أن نأخذها كما أخذوها بعد أن نصقلها صقل التعريب فتضاف إلى اللغة القومية

— ٦ —

وتعليم العلوم بلغة البلاد يخلق فينا قوى جديدة ، ويدفعنا إلى الترجمة والتأليف ، ويرفع عنا إصر الكسل المخجل الذى يتمتع به أساتذة الكليات ؛ وهو كذلك يرفع عنا هذه الوصمة البشعة ، وصمة الفقر فى المكتبات ، ففى الممالك المستقلة يرى الانسان فى الأحياء الجامعية مكتبة خاصة بالطب ، ومكتبة خاصة بالعلوم ، ومكتبة خاصة بالفلسفة ، ومكتبة خاصة بالطيران ، وهكذا دواليك ، أما فى مصر فلا يجرؤ أحد من الناشرين على إنشاء مكتبة خاصة بعلم من العلوم ، وإنما تتجمع العلوم والآداب والفنون والحكايات فى مكتبة واحدة تلتقى فيها قصة القط والفأر بكتاب أرسطو فى الأخلاق

إن فقر مصر فى الترجمة والتأليف يقع وزره على رجال الجامعة المصرية ، فلو سلكوا مسلك الحزم والجد وتذكروا

أنهم يعيشون فى بلد كان وطن المعارف والعلوم لأقبلوا على لغتهم فاصطفوها وجعلوها لغة التعليم ، وأمدّوها بكل طارف وتليد ، وتسامت هممهم إلى جعلها لغة الشرق فعاشوا بفضلها سادة أعزّاء

وفى مقدور سعادة مدير الجامعة أن يشير بهذه التجربة فى حزم وجدّ ، وما أظنه يخشى الإخفاق ، لأن اللغة العربية لها ماض مجيد فى الحياة العلمية والطبية ، ومن السهل ردّهما إلى مجدها القديم ، ونحن لا تعجزنا الأصول وإنما تعجزنا الهمم العاتية التى تخلق الممالك والشعوب ، وليس من الكثير أن نشقى عشر سنين فى سبيل تجربة شريفة نحفظ بها ذكرانا نقية بيضاء على وجه التاريخ

أقْدِمْ ، يا مدير الجامعة المصرية ، على هذه التجربة ، لتحوّل أساتذة الكليات إلى طلاب جادّين يشعرون بالعزة

كلما تذكروا أنهم يحملون الأحجار لوضع أساس الاستقلال

— ٧ —

إن مصر حين تُعلِّم العلوم باللغة العربية ستفتح أسواقا جديدة هى أشرف الأسواق ، وحسبكم أن تتذكروا أن مصر ستصبح بحق زعيمة الشرق ، وستكون مؤلفاتها عمدة الباحثين فى المشرِقَيْن ، فيتغنى بذكرها أهل المغرب والشام والحجاز واليمن والعراق

أتحسبون أن من القليل أن يكون فى الخارج مكاتب خاصة بالثقافة المصرية ؟

إنّ من مجد فرنسا وانجلترا أن يرى الانسان فى مثل القاهرة مكاتب فرنسية وانجليزية ، وتلك من أظهر علائم السيطرة الأدبية عند من يتمتعون بنعمة الاستقلال

إن اللغة العربية من أكبر لغات الشرق ، ومصر فى

هذا الزمان على رأس الحركة العلميه فى الشرق ، ولا ينقصها إلا أن تجعل العربية لغة التعليم فى جميع المعاهد ، فتقهر الأساتذة على الترجمة والتأليف ، وتسوقهم سوقا إلى اجتذاب الأمم الشرقية باسم الأدب الحق ، أدب الفكرة والمنطق والفن الجميل

كيف نَدَّعى شرف الاستقلال وليس عندنا مُعْجَمٌ واحد يسجّل تطور اللغة فى العصر الحديث ؟

كيف نَدَّعى شرف الاستقلال وليس عندنا مكتبة طبية أو علمية باللغة العربية ؟

كيف نَدَّعى شرف الاستقلال وآثار مصر نفسها لم يُنْشَرْ عنها كتاب وافٍ باللغة العربية ؟

كيف نَدَّعى شرف الاستقلال وليس عندنا كتاب فى القانون خَلَتْ صفحةٌ من صفحاته من سطرين أو ثلاثة بلغة أجنبية ؟

كيف نَدَّعى شرف الاستقلال ولا يستطيع رجل من علمائنا أن يكتفى فى أى بحث بالمصادر العربية ؟

كيف نَدَّعى شرف الاستقلال وليس عندنا وزير واحد خلَتْ بطاقته من الكلمات الأجنبية ؟

كيف نَدَّعى شرف الاستقلال والمطبوعات الأجنبية هى أكبر محصول فى دار الكتب ومكتبة الجامعة المصرية ؟

كيف نَدَّعى شرف الاستقلال وفى القاهرة والاسكندرية مناطق لا تباع فيها غير الجرائد الأجنبية ؟

كيف نَدَّعى شرف الاستقلال وفى الدواوين أقلام لا تدوّن ملفّاتها بغير الانجليزية ؟

كيف نَدَّعى شرف الاستقلال ولغتنا منسيّة فى معاهدنا ومدارسنا ومكاتبنا؟ وأخشى أن أقول انها منسية فى دور الوزراء والأمراء وأكثر المتحذلقين من أبناء الزمان ؟

إن مدير الجامعة مسئول أمام الوطن وأمام التاريخ عن هذا البلاء ، وفى يده أن يكشف هذه الغمة وأن يجعل لغة البلاد لغة الدرس والتأليف فى جميع الكليات .

نعم يستطيع الأستاذ الجليل أحمد لطفى السيد باشا أن يجمع أبناءه المخلصين من أساتذة الجامعة المصرية ويفرض عليهم اصطناع اللغة العربية فى جميع المواد ، وعلى الضعيف أو المتخلف أن يستقيل ، فان مصر تعانى أزمة تقض المضاجع لأنها مستقلة رسمياً ، ولكنها محرومة من أشرف مظاهر الاستقلال

أريد أن أعرف ما الذى يقهرنا على هذه التبعية العلمية للانجليز والفرنسيس ؟

ان اللغة الفرنسية ليس لها إلا سلطان ضئيل فى كلية الحقوق وكلية الآداب . أما اللغة الانجليزية فتطغى وتستطيل فى كليات الطب والهندسة والعلوم ، وما أذكر

أن هذا الطغيان كان من التحفظات المشهورة فى التاريخ

لنا عذرٌ واحد : هو الكسل المعسول الذى ينعم به الخامدون

ولكن هل يعجز مدير الجامعة عن استئصال هذا الداء ؟

إن الوطن ينتظر منه هذه اللفتة : لفتة الوالد الحازم الذى يخشى على بنيه من انهزام العزائم وانحلال الطباع

— ٨ —

ان اللغة من مقومات الاستقلال ؟

كذلك يقول دولة رئيس الوزراء

وهذا والله صحيح ، ألم تروا كيف يحرص الغاصبون على نشر لغاتهم ؟ إن فرنسا فى مستعمراتها تنشر اللغة الفرنسية ، وانجلترا فى مستعمراتها تنشر اللغة الانجليزية ، وايطاليا فى مستعمراتها تنشر اللغة الايطالية

فاذا كان الغاصبون يرون نشر لغاتهم من مؤيدات الاحتلال ، أفلا يرى الوطنيون نشر لغتهم من مؤيدات الاستقلال ؟

رحمة الله على ألفونس دوديه ، فما تذكرت كلمته عن « الدرس الأخير » فى (الالزاس) الا ثارت نفسى ، وتجدّد إيمانى بأن حفظ اللغة هو الأساس فى حفظ الاستقلال ، ونحن خليقون بأن نأخذ الدرس من غاصبينا ، لأنهم أساتذة فى علم النفس ، واليهم المرجع فى تصريف الشعوب

اللغة كما قلت لكم شخصية استقلالية ، وهى وحدها من أهم مظاهر الاستقلال ، فَعَضُّوا عليها بالنواجذ إن كنتم تعقلون

— ٩ —

وما أحب أن تضيع هذه الفرصة بدون أن أذكّر

سعادة مدير الجامعة المصرية بمسألة خطيرة تمس الاستقلال وتلك هي مسألة الرسائل التي تقدم لنيل الدرجات الجامعية

ان الرسائل التي تُقَدَّم لامتحان الدبلوم والدكتوراه يجب دائماً أن تكون باللغة القومية ، ففي جامعة باريس مثلا لا تُقْبَلُ الرسالة الأساسية بغير اللغة الفرنسية ، ولو كانت في موضوع يتصل باحدى اللغات الأجنبية

أما في مصر فالأمر بالعكس ، تقدم الرسالة الى الجامعة المصرية بأي لغة أجنبية بدون اعتراض ، ولو كانت في صميم الآداب العربية ، أو الشريعة الاسلامية ، وهي حين تُقَدَّم بالعربية يجب أن تكون مصحوبة بخلاصة فرنسية أو انجليزية ، ولو كان أعضاء الامتحان جميعاً مصريين

وقد قاومتُ هذه البدعة مرات كثيرةً في جريدة البلاغ ، لأن كلية الحقوق جرت في تقاليد الامتحانات العالية على إيثار تقديم الرسائل بلغة أجنبية ، واتفق لها مرة

أن قبلت رسالة كتبت باللغة الفرنسية عن الدية في الشريعة الاسلامية

تذكروا أنكم دعوتمونا الى تقديم ما نشاء من الآراء والمقترحات ، فان كنتم جادين فيما دعوتم فنحن جادون فيما نقترح ، ونحن نرى تقديم الرسائل الى الجامعة بلغات أجنبية ينافى الحرص على مقومات الاستقلال

قد تقولون انكم تريدون التعرف الى الجامعات الأجنبية ونحن نقول إن لهذا التعرف وسائل كثيرة فاختاروا منها ما شئتم ، إلا هذه الوسيلة التى تعلن تبعيتكم لثقافة الانجليز أو الفرنسيس

أنا أدعو الى تعديل هذه الفقرة من لوائح الجامعة المصرية ، وأوصى بجعل اللغة العربية لغة الرسائل العلمية والأدبية والتشريعية التى تقدم لنيل الدرجات الجامعية

أترون فى هذا الاقتراح شيئاً من الشطط ؟

إن سعادة مدير الجامعة يعرف أنى على حق ، والى رأيه الموفَّق أكل تحقيق هذا الاقتراح النبيل

— ١٠ —

ولكن ماهى اللغة التى تُعَدُّ من مقوِّمات الاستقلال؟

أهي اللغة المخدَّرة التى لا ترى الشمس ولا يعرفها غير عشاقها المعدودين من كبار الكتاب ؟ أهى تلك اللغة الهيُوب التى تتعثّر فى كل حرف ، وتسقط فى كل فقرة ، ويختلف من حولها العلماء فى الصباح والمساء !

اننا نريد « لغة من لغات المدنية » نريد لغة يفهمها الفلاّح والملاّح والنجار والبنّاء ، نريد لغة سخية تسعد أبناءها جميعاً بغير حساب ، نريد لغة تجمع بين التواضع والجبروت ، يرى فيها العوام ما يشاءون من البساطة والجمال ويرى فيها الخواص ما يريدون من السمو والتحليق ، نريد لغة مبذولة على نحو ما يبذل الضوء والهواء ، يأخذ منها

كل إنسان ما يناسب عينيه ورئتيه ، وأنا بهذا أدعو الى الديموقراطية اللغوية ، أدعو الى تيسير اللغة تيسيراً يقرّبها من جميع القارئين والسامعين ، أدعو الى القصد فى احترام الألفاظ القاموسية ، وأشير باحترام ما اصطلح عليه الناس من الالفاظ فى مختلف الفنون

ولن تكون اللغة العربية (لُغَةَ مَدَنِيَّةٍ) إلاّ يوم تصبح أداة التفاهم بين جميع الطبقات ، ويوم تحترم جميع الالفاظ الاصطلاحية ، فترفع تلك الهيبة السخيفة التى يعانيها كل تلميذ يُكلَّفُ موضوع إنشاء

وأنا أقترح أن يتصل المؤلفون بالقراء على نحو ما يتصل الأساتذة بالطلاب ، فان ذلك ينفع أجزل النفع فى تعريف المؤلفين بما يأخذون وما يَدَعُون ، فقد رأيت العجب فى حياة التدريس ، وعلمت علم اليقين أن التلاميذ يتهيبون اللغة ويذهبون ضحية الحذلقة التى يلمسونْ آثارها

فيما يقرأون وما يسمعون

لقد كنت أجد من بين تلاميذى من يدنو منى فى درس الانشاء ويهمس : يا استاذ ، هل يصح أن أقول « مشيت وحدى »

نعم ، يابنى ، تستطيع أن تمشى وحدك بلا مين

وكنت أجد من يقول : يا أستاذ : هل (خرجت) كلمة فصيحة ؟

نريد أن يقبل الأساتذة والمؤلفون على التلاميذ والقراء فيفهموهم أن الافصاح أيسر مما يظنون ، نريد أن يفهم الجمهور أن الافصاح ليس وقفاً على المتحذلقين من أساتذة الأزهر ودار العلوم وكلية الآداب

وأنا مع هذا أومن بأن فى كل لغة نوعاً من الاريستوقراطية الادبية ، ولكنى أنكر أن تكون لغتنا فى كل مناحيها لغة أريستوقراطية لا يفهمها حق الفهم غير الخواص

اذهبوا ان شئتم الى مدينة مثل باريس ، وانظروا كيف تنشر على الجماهير بعض الفقرات من خطب الوزراء. رحمةُ الله على تلك الليالى حين كنت أنظر أقوال هربو ودلاديه منشورة بأحرف من نور فى أكثر الميادين ، وهى فى بساطة تذكر بتعابير الأطفال

اقرأوا إن شئتم مؤلفات أناتول فرانس : ذلك الكاتب الفحل الذى حوّل الفرنسية الى أحاديث حلوة عذبة لا يَدِقُّ معناها على أحد من سواد الناس

إن « البيان » الذى سمعتم عنه لا يعرفه الا الأقلّون من كتّاب هذا الزمان ، وإلاّ فأين الكاتب الذى استطاع أن يصل بقلمه اللأمُوب الى أفئدة الجماهير من أهل الريف ؟

وعلى مَنْ يقع وِزْرُ هذه النكبة الوطنية ؟

يقع وِزْرُها على الأساتذة والمؤلفين ، فهم الذين ملأوا أذهان الناس بالوسوسة اللغوية ، وحرموهم نعمة

الفهم الصحيح

نحن نريد لغة تُشْبِهُ لغة القوانين والمعاهدات ، نريد لغة محدَّدَة الألفاظ واضحة المعانى ، نريد لغة موحَّدة يُخَاطَبُ بها جميع الناس بلا تردُّد ولا تهيُّب ، وهذه اللغة المنتظرة يجْهَدُ فى خَلْقِهَا كتاب الصحف اليومية الذين عرفوا بالتجربه أن لهم « زبائن » فى جميع البيئات

— ١١ —

ويتصل بهذا الغرض إصلاح الرسم ، وأنا أدعو إلى التفكير فى اختراع حروف جديدة مشكولة ، فان الرسم الذى نكتب به ناقص أبشع النقص ، ولن نصل إلى تحرير اللغة من اللَّبس إلاّ يوم نطمئن إلى أن الجماهير المختلفة تنطق الكلمات على نمط واحد ، فقد اتفق لى مرات كثيرة أن أعدل عن كلمة إلى أخرى خوفا من اللَّبْسِ الذى يوجبه فقد الشكل ، ولو كنت أجد حروفا مشكولة فى مثل

مطبعة البلاغ لوصلت فى الافصاح إلى ما أريد

والذى أعانيه من هذا الجهد يعانيه جميع الكتاب .

والمهم فى هذه المسألة هو إيجاد حروف مشكولة مع القصد فى صناديق الحروف ، فان الشكل ليس بمستحيل ولكنه غير مستطاع فى الجرائد بسبب تعدد الصناديق وازدياد نفقات الجمع ، وتستطيع الحكومة أن تقيم (مباراة خطية) عسانا نجد من يخترع لنا حروفا مشكولة لا يزداد بها عدد الصناديق

ولتوضيح هذه المسألة أقول :

إن لحرف الفاء مثلا أربع صور هى : ف . فـ . ـفـ . ـف

ولو وضعنا لكل صورة ثلاث حركات لاحتجنا إلى اثنتى عشرة صورة لكل حرف ، وبذلك تتعدد الصناديق وتحتاج كل مطبعة إلى مضاعفة عدد الصفافين ، وذلك عبء ثقيل

وأنا بكل جرأة أدعوكم إلى توحيد الحروف ، أدعو إلى الاكتفاء بصورة واحدة لكل حرف ، فيكون له وضع واحد فى أول الكلمة وفى الوسط وفى الطرف . ثم يُصَب من كل حرف ثلاثة أشكال فيها الكسر والضم والفتح ، مع الاستغناء مُؤَقَّتًا عن حركات الإعراب

وهذا الاقتراح يبدو غريباً لأول وهلة لأنه يذهب بشىء من جمال الخط العربى ، ولكن جمال الخط القديم لن يساوى ما نظفر به من الدقة والتحديد فى الخط الجديد

قد تقولون : إن هذا الاقتراح سيوجب أيضاً زيادة الصناديق ، وأجيب بأنها زيادة قليلة بالقياس إلى الزيادة المخوفة التى يرهقنا بها اصطناع الشكل الكامل فى الخط القديم

على أنه لا مَفَرَّ من التفكير فى إصلاح الرسم ، لأن البدعة التركية فى اصطناع الحروف اللاتينية ستُلاحِقُنا

بلا ريب ، فان لم نتدارك الأمر منذ اليوم فسيكون لشبان الجيل المقبل آراء فى استحسان ما صنع الأتراك

فان لم تفعلوا — وأرجو أن تفعلوا — فانى أخشى أن يكون مصير الخط العربى مصير أتعس السمكات الثلاث !

— ١٣ —

ولكن كيف السبيل إلى تقريب اللغة العربية من قلوب الناس ؟

إن اللغة العربية لا يعرفها أهلها ، لأن المؤلفات الحديثة خالية من الجاذبية فى أكثر الأحوال ، والمؤلفات القديمة مهجورة لا أنصار لها ولا أشياع ، وآية ذلك أن مكتبة الأزهر يندر أن يفد إليها أحد من المطالعين ، ومكتبة زكى باشا لم تجد من يقرأها فى قبة الغورى غير جماعة الفيران ! !

والناشرون فى القاهرة لا تعيش مكتباتهم إلا بفضل زبائنهم فى مختلف الأقطار العربية . أما الاسكندرية فأمرها عجب ، ومن كان يظن أن تلك المدينة العظيمة ليس فيها مكتبة واحدة مصرية تضارع بعض ما فيها من المكتبات الأجنبية ؟

وكذلك يقال فى بور سعيد ، وأسيوط ، وأسوان

وخلاصة القول أن اللغة العربية ، لغة التأليف ، ليس لها فى مصر قراء ، وهذا عيب يمس كرامة الاستقلال

إن الشاب الفرنسى يقرأ فى كل سنة نحو ستين كتاباً ، فكم كتاباً يقرأ الشاب المصرى ؟ اسألوا أنفسكم عما تذكرون من المؤلفات الحديثة أو القديمة التى توصون بقراءتها من يستفتيكم من الشبان . لقد قضيت فى مهنة التعليم نحو عشرين سنة واختبرت ألوفاً من التلاميذ فى المدارس المصرية والأمريكية والفرنسية ، وكنت أحض

الطلبة على القراءة والاطلاع ، وكان الطلبة يسألون : ماذا نقرأ ؟ وأقسم صادقاً أنى لم أوفق مرة واحدة إلى الجواب ، لأنى لا أجد ما أوصى بقراءته غير عدد يسير جداً من المصنفات لا يفتن ولا يشوق

إن التأليف فى مصر مشلول بالرغم من طنطنة المؤلفين ، والأُمَّةُ التى تعجز عن تثقيف أبنائها لا تعرف مقوّمات الاستقلال

ينبغى أن يكون فى مصر مؤلفات لكل جمهور ، وفى مصر نحو عشرة جماهير مختلفة المشارب والأذواق ، فما الذى صنع كبار المؤلفين لتغذية تلك المشارب والأذواق ؟

على أن من التعسف أن نلقى اللوم كله على المؤلفين ، فهذه الجماهير مسئولة أيضاً عن كساد التأليف ، إن هذه الجماهير لا تعرف المكتبات العمومية أو الخصوصية ،

وأنت فى الأغلب تقول فى سبيل التعريف : إن المكان الفلانى قريب من المحافظة ، قبل أن تقول : إنه قريب من دار الكتب المصرية

فما السبيل إلى تشجيع التأليف وخَلْق ذوق القراءة والاطلّاع ؟

لنبدأ بالموظفين الذين ننفق عليهم نصف الايراد

إن جمهور الموظفين لا يقرأ ، ولا يهمه أن يقرأ ، مع أنهم يمثلون الجمهور النظيف ، فان كنتم فى ريب من هذا الحكم الصارم فانظروا مصير أهم المؤلفات ، فان أعظم كتاب فى مصر لا يطبع فى كل مئة سنة أكثر من مرتين ، أكان يصح ذلك لو كان الموظفون من عشاق القراءة والاطلاع وهم يُعدُّون بالألوف ؟

قد تقولون إنهم يعوّضون ما ينقصهم بالاطلاع على الجرائد والمجلات ، وهذا أيضاً غير صحيح ، فالموظفون

فى الأغلب منقطعون عن الحياة الأدبية ، وقد يلقانى الرجل منهم فيوجّه إلىّ أسئلة عن ناس لا يعرف أن صلتى بهم انقطعت منذ سنين ، وقد اتفق منذ أيام أن أرسل إلىّ أحد كبار الموظفين خطاباً على كلية الآداب ، مع أنى فارقت تلك الكلية منذ أشهر طوال ونشرت عن بعض خصومى فيها أكثر من عشر مقالات ، وكنت أظن أن مثل هذا الحادث يصل صداه إلى جميع الآذان

هذا عيب من عيوبنا فلندمغه غير هائبين

— ١٣ —

ولكن ما هو العلاج ؟

أنا أقترح أن تؤلف فى وزارة المعارف لجنة خاصة بتشجيع التأليف تكون مهمتها فحص ما يصدر من المؤلفات لتختار ما يجب أن يقتنيه الموظفون ، وفى هذه الحال أقترح أن تخصم الحكومة عشرة قروش فى كل

شهر من كل موظف ، وتقدم إليه فى كل سنة خمسة كتب أو ستة من جيد المصنفات

ولو تحقق هذا الحُلْم لخلقنا فى الجماهير المصرية ذوق القراءة والاطّلاع ، لأن الموظفين فى مصر لهم إخوان وأبناء ، وهم سيُعْدُون بهذا المرض الجميل من يتصل بهم من سواد الناس

قد تقولون : وبأى حق نقطع فى كل شهر عشرة قروش من مرتب كل موظف ؟

وأنا أعترف بأن فى هذا حَجْرًا على الحرية الشخصية !!

ولكن مصر فى هذه السنين تحتاج إلى مثل هذه التدابير ، فنحن قوم حديثو عهد بالاستقلال ، وللاستقلال مقومات على رأسها اللغة كما تعلمون

إن اللغة لا تراد لذاتها ، وإنما يقصد بها التعليم والتثقيف ، ونحن فى مصر نحتاج أشد الاحتياج إلى

المُصْلِح المُسْتَبِدّ الذي يسوقنا سوقاً إلى موارد العلوم والآداب والفنون

أتذكرون ما صنع مصطفى كمال حين حرّم لبس الطرابيش ؟

لقد عطّل نحو عشرة ملايين من الطرابيش كانت تُقَوَّم بألوف الجنيهات لأنها لم تُعَوَّض إلّا بمقادير عظيمة من القُبَّعات

وأنا لا أدعوكم إلى تبديد قروش الموظفين ، وإنما أدعوكم إلى تجميل بيوتهم بنفائس المؤلفات . . . أقدموا على هذه المحاولة الشعرية ، فان فعلتم فستذكرونني ما عشتم بالخير الجزيل

— ١٤ —

وبجانب هذا الاهتمام بالتكوين الادبي لجمهور الموظفين يجب أن نهتم بالتكوين الادبي لجمهور الشبان ،

ولا سيما تلاميذ المدارس الثانوية

وأنا أقترح إلغاء دروس تاريخ الأدب فى تلك المدارس ، لأن تاريخ الأدب لا يُفْهَمُ إلا بعد درس الادب وأكاد أوقن بأن دراسة تاريخ الادب فى المدارس الثانوية ليست إلا ضرباً من تضييع الوقت ، وإجْهاد العقول بلا غَناء ، وهذا الحكم الصارم لا يؤمن بعدالته إلا من عانى تدريس تاريخ الأدب فى المدارس الثانوية ، وأنا عانيته نحو عشر سنين ، وعرفت ما فيه من البلاء الذى يُصَبُّ على رؤوس الطلاب بغير حساب

ومن البلية أن لا تقدِّم وزارة المعارف لطلبة المدارس الا كتاباً ألَّفه جماعة لم يعرف أكثرهم عقلية التلاميذ فى المدارس الابتدائية ولا الثانوية ، ولا دروا كيف يكون الرفق فى مهمة التدريس وان كانوا من أعلام الزمان . وكان من العجب أنْ يُفْرَضَ على طلبة السنة الثالثة أن يدرسوا

تاريخ الأدب كله من عهد امرئ القيس الى عصر حافظ ابراهيم ، وهى دراسة سينمائية لا يرضى عنها رجل يعرف مهنة التعليم

وقد خُفِّفَ البرنامج أخيراً بعض التخفيف ، ولكنه لا يزال غير صالح ، وإلاّ فكيف تنتظر من تلاميذ السنة الاولى فى المدارس الثانوية أن يدركوا الفرق بين كاتب يُغْرَمُ بالبديع وآخر لا يتكلف البديع ، وقد عرضتْ لى هذه المشكلة مع طلبة الليسيه فشرحتها مرات بالعربية ومرات بالفرنسية ، ثم صدفت عنها صدوف اليائسين

إن درس تاريخ الأدب بدعة نقلناها نقلا عن أوربا ، وهى مقبولة هناك ، لأن الادب الاوربى يكثر فيه القَصَص والتمثيل ، وهى موضوعات أَلِفَها التلاميذ ، لأنهم منذ الطفولة عرفوا القَصَص وعرفوا التمثيل ، فلا يصعب عليهم أن يفهموا الفرق بين فن وفن ، وعصر وعصر ، وأسلوب وأسلوب

أما فى مصر فالادب فى جملته يتحدث عن شؤون جِدّية لم يعرفها الشبان من قبل ، فمن العسير أن يدركوا كيف تطور واستحال من جيل الى جيل

إن تاريخ الادب لا ينبغى أن يدرس إلا فى المعاهد العالية ، أما المدارس الثانوية فيدرس فيها الادب الصّرف ، مع العناية بشرح النصوص ، والبحث عن مواطن الجمال فى النثر الجيد والشعر البليغ

— ١٥ —

درس تاريخ الادب فى المدارس الثانوية جُهْدٌ ضائع وسنصبر عليه الى أن تسوق المقادير الى وزارة المعارف رجلا حاذقاً من بين الذين عرفوا عقلية التلاميذ ، وما أظن أننا سنصبر طويلا ، لأن العناية باصلاح التعليم تزداد من يوم الى يوم

والى أن تحذف تلك المادة الفضولية نوصى أساتذة

اللغة العربيـة بأن يتخيروا للمطالعة والمحفوظات نصوصاً لا تخرج عن العصر الحديث ، لأنه أقرب العصور الى أذهان التـلاميذ ، وقُرْبُهُ من أذهانهم يساعد المعلمين على بيان ما يتصل به من الملابسات الخلقية والاجتماعية ، ويمكّن التلاميذ من فهم ما فيه من أسرار البيان

قلتم انّ اللغة من مقوّمات الاستقلال

فما الذى يمنع من تعريف التلاميذ بالمحاولات الادبية التى تتصل بالحياة السياسية ؟

ما الذى يمنع من دراسة ما وقع بين رجال الاحزاب

ما الذى يمنع من دراسة المناوشات الحزبية التى عرفتها مصر فى الثلاثين عاماً الماضية ؟

ما الذى يمنع من درس ما وقع بين كبار الكتاب من صنوف الجدل وضروب النضال ؟

ما الذى يمنع من درس السخرية التى عاناها محمد عبده من معاصريه ؟

ما الذي يمنع من درس رسائل عبد العزيز چاويش في نقد سعد زغلول ؟

ما الذى يمنع من تقليب الصحف الفكاهية ودرس ما فيها من النكت اللواذع التى صُوِّبت الى رجال الاحزاب ؟

ما الذى يمنع من درس وطنيات حافظ ؟

بل ما الذى يمنع من درس المنشورات التى طُبِعَتْ فى سنة ١٩١٩ ؟

إننى أوصى بخَلْق الفرص لتشويق التلاميذ الى درس الادب الذى يُحيي النزعة القومية ، ويبعث فيهم روح الشوق الى حياة الاستقلال

أقول هذا وأنا أعلم أن ما أوصى به آتٍ لا ريب فيه ، ولكن من الخير أن يعلم أبناؤنا اننا نفكر بعقول

المستقلين ، وأننا لا نزح حين نتكلم عن مقوّمات الاستقلال

— ١٦ —

ذلك ما نوصى به فى التعليم الثانوى ، فاذا انتقلنا الى التعليم العالى فرضنا على أبنائنا أن يتعمقوا فى درس تاريخ الادب العربى ، ورُضْناهم على تذوق النصوص المختلفة ، وانتظرنا منهم أن يكونوا من أعلم الناس بالادب والتاريخ

وفى هذه الحال لا يرضينى أن يكتفى أستاذ الادب بالطواف حول حياة الكاتب أو الشاعر أو الخطيب ، بل يجب أن يهتم بدرس الصلات بين الادب والاجتماع ، وأن يُقْرى تلاميذه بخوض الحياة ، حياة الجد والاقتحام ، فتكون لهم مواقف يسجلها التاريخ ، على نحو ما اتفق لاقطاب الادب فى العصر القديم

والاستاذية فى مثل هذه الاحوال توجب أن يكون

رجال الأدب رجال أعمال، فقد شبعنا من تلك الشخصيات المصقولة التى تحسن الأسمار والأحاديث، نريد أساتذة مقتحمين معاصرين يشتركون فى الحياة النيابية، ويتصلون بأمتهم وتلاميذهم اتصالاً قوياً له أسباب وأوتاد من حياة المجتمع اللاجب المضطرب

— ١٧ —

فاذا انتقلنا من الأدب وتاريخ الادب فى المدارس الثانوية والعالية، تلفتنا نبحث عن الاديب المخلوق لدرس الحياة، ونحن نرجو أن يكون فى أساتذة الادب من يخرج على الذوق المتكلّف والوقار المصنوع، نرجو أن يكون عندنا أساتذة يزورون تلاميذهم فى بيوتهم، ويرافقونهم فى الحفلات والسهرات، ويطوفون بهم على الأحياء الشعبية ليعلّموهم كيف تكون الثورة على ما فى حياة الشعب من بؤس وشقاء

نريد أساتذة يربون تلاميذهم على مرافقة العمال والصناع والفلاحين ليكونوا فى المستقبل من حملة الأقلام الثورانية التى تبدد غياهب الجهل والخمول

نريد أدباً يبعث فى الشعب روح التمرد على الفقر والمسكنة والذل ، ويروضه على الطمع الشريف فى الغنى والكسب والعزة والكبرياء

نريد أدباً يطمئنا فى استرجاع ما أضاع الزمان من مجد مصر والنيل

نريد أدباً يرفعنا الى صفوف الجوارح ، نريد أدباً يعلّمنا فضل المخلب والناب ، نريد أدباً نسيطر به على الدنيا غير باغين ولا عادين

— ١٨ —

ولن تكون اللغة من مقوّمات الاستقلال الّا حين تسود فى وطنها سيادة قاهرة فتسيطر على العقول والمشاعر

والأذواق ، ولا يتمّ لها ذلك الا يوم يقوى أدبها ويستفحل فيشغل الناس بدرس قلوبهم وأهوائهم وأخلاقهم ، ويكون له شعراء وكتاب ومحدّثون يغزون القصور والأكواخ.

ومن الحزم أن نشير الى وجوب العناية بتربية الشبان على حب وطنهم في ماضيه وحاضره . ولا يكون ذلك الا بقهر الأدب على تصوير ما مرّ بمصر من نعماء وبأساء ، وما شهدته من أنوار وظلمات ، وما يساورها من مخاوف أو يداعبها من آمال

يجب أن يوجّه الأدباء عنايتهم الى خلق بيئة أدبية يكون جدها وهزلها متصلا بحياة الوطن كل الاتصال ، يجب أن تكون أحزاننا وأفراحنا ، وإسفافنا وتحليقنا ، وضلالنا وهدانا ، وآلامنا وآمالنا مصوّرة فيما ننشئ من الرسائل ، وما ننظم من القصائد ، وما نكتب من المؤلفات وما نتغنى به من الأناشيد

اننا لا نحب وطننا أصدق الحب ، لأن غرامنا به لم يَشُبْهُ شيء من التصوف والروحانية ، وكان ذلك لأن الشعراء لم يخلقوا في قلوبنا ذلك الحب ، وكيف يخلقونه وقد غفلوا عن الاشادة بما انتثر من معالم الحب والمجد على ضفاف النيل ؟

لقد جلست لحظة منذ أيام في ذهبية ، ثم مرّت سفينة فانتشيت ، أتعرفون السبب ؟ لقد طاف بالخاطر خَرّاقات دجلة والفرات التي تغنّى بها شعراء العراق

أكنتُ أقاسي هذه الغربة الروحية لو أن شعراءنا شوّقونا الى سفائن النيل ؟

أتذكرون قول الشاعر العراقي :

يَالَيْتَ مَاءَ ٱلْفُرَاتِ يُخْبِرُنَا
أَيْنَ ٱسْتَقَلَّتْ بِأَهْلِهَا ٱلسُّفُنُ

إن هذا البيت أمة من الشعر الجميل ، وكان مما يحفظ

جميع أهل العراق ، فهل تذكرون شاعراً مصرياً حبّب الينا النيل على نحو ما فعل ذلك الشاعر في تمجيد الفرات ؟

أين مآسينا ، أيها الشعراء !

أين القصائد التي تصوّر ما عانته مصر يوم حريق الفسطاط ؟

أين الشعر الذي يمثل مذبحة المماليك ؟

أين القصص التمثيلية التي ترينا أشباح الليالي السود حين انهزم الجيش المصري في الموقعة التي لم يجف دمها الى اليوم ؟

أين القصائد والرسائل التي تصور عيوبنا الأخلاقية وقد عانَيْنا صنوف البلايا والأرزاء من شيوع المحسوبية والتزلف والنفاق ؟

وأين مواسمنا الغُرُّ أيها الأدباء ؟

أين القصائد والرسائل والخطب والمؤلفات التي

تفصح عن عبقريتنا فى مقاومة الخطوب ؟

إن صبر الجيش المصرى على منازلة الجيش الانجليزى فى معركة فاصلة دامت ثلاث عشرة ساعة هو فى ذاته نصر مبين ، ولكن أين من يفهم دقائق المعانى فى حياة الشعوب ؟

دُلُّونى على كاتب واحد استطاع أن يخلق فى قومه الشعور بأنهم يعيشون فى وطن نبيل ؟

دُلُّونى على كاتب واحد عمد الى الجوانب القوية من زعمائنا وقادتنا فى القديم والحديث فأفصح عنها إفصاحاً يجعلها مضرب الأمثال فى المشرق والمغرب على نحو ماصنع كتاب الانجليز والفرنسيس والطليان والألمان؟

أيها الناس

إن اللغة لا تكون من مقوّمات الاستقلال الا يوم تشغلنا بمخاوفنا وأمانينا ، ويوم تصبح من القوة بحيث

يكون لها عشاق فى المشرق والمغرب ، ويوم تطغى فى وطنها وتستطيل فلا يكون لها مزاحم ولا منافس ولا شريك

وخلاصة القول أن اللغة لا تكون من مقوّمات الاستقلال إلاّ يوم يشعر الناس جميعاً بأن لها فى وطنها سلطاناً دُونَهُ كل سلطان ، يوم يشعر من يدخل ميناء الاسكندرية أو بور سعيد أنه فى حاجة الى مترجم ، وأن مصالحه تُعَطَّل إن جهلها كل الجهل ، على نحو ما يقع لكل وافد يطأ الارض الفرنسية أو الانجليزية أو الالمانية

وأول ما يجب لتحقيق ذلك هو إعزاز اللغة فى أنفس أبنائها ، وهى لا تعزّ فى أنفسهم الا حين تغنيهم أو تكاد تغنيهم عن جميع اللغات ، حين تصبح لغة العلم والمدنية فيجد فيها كل طالب ما يسعفه من المراجع فى العلوم والفنون والآداب

لا تكون اللغة من مقوّمات الاستقلال الا حين تفى بأغراض الجد والهزل ، وتربط أبناءها بماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم أوثق رباط ، وسيكون هذا مصير اللغة العربية فى مصر إن صحت العزائم وسامت النفوس

وهذا أمل ليس بالبعيد ، فلا تحسبونى من الحالمين

— ١٩ —

والدين ؟

أهو أيضاً من مُقوِّمات الاستقلال ؟

وكيف وفى الشرق والغرب ناس يتحللون من الدين ليعيشوا سعداء ؟

هذه فرنسا تحارب رجال الدين وتحول بينهم وبين مناصب التعليم ، ثم تعيش مع ذلك فى حرية واستقلال

وتلك تركيا تقلِّم أظفار الأشياخ وتُقبل على الحياة المدنية ، فلا يزيدها ذلك إلاّ قوة الى قوة ، واستقلالاً الى استقلال

ولكن مهلاً ، فان تلك الأمم القوية لم تحارب غير الدين المزيّف ، أما الدين الصحيح فهو بلا ريب من مقوّمات الاستقلال

الدين المزيف بَلاءٌ يصبُّه التأخر على الأمم والشعوب لأنه يمنح الكسالى والعاطلين سلطاناً خطراً يشلّ حركة التقدم والنهوض . ورجال الدين المشهوذون لهم سوابق فى قتل الحرية ، واضطهاد الأحرار ، وطمس معالم العلوم والفنون

أما الدين الصحيح فهو ثروة قومية يجب أن يحرص على تنميتها ساسة الشعوب

الدين الصحيح حِجاز من الزيغ والإفك والبُهتان ، وهو حين يقوى يصبح من أدق الموازين فى ضمائر الأفراد ويغنى الدولة غِنًى لا يعرف قيمته إلا من يعرف ما للخُلُق القويم من أثر حميد

لو كان للدين سلطان على أرواح الناس لانعدمت النمائم والسعايات والوشايات، وانقطعت هذه المجازر البشرية التي يخلقها الدس والاغتياب

لو كان للدين سلطان على أرواح الناس لما رأينا شهود الزور يضللون القضاء بلا حياء

لو كان للدين سلطان على أرواح الناس لما استطال الأقوياء على الضعفاء، ولما رأينا ذلك الحقد الذي يبيّته الفقراء للاغنياء

لو كان للدين سلطان على أرواح الناس لقلّ البغي والعدوان، وعرف كل امرئ قدر نفسه، واطمأن الى أن الله مالك الملك، يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء.

الدين ثروة قومية وهو عماد من عُمد الاستقلال، لأنه يصحح ضمير الفرد، والفرد الصحيحُ الخُلُقِ ليس إلاّ حجراً سليماً في بناء القومية

حدثني بربك ما هذه الملايين التي تمر وادي النيل ؟ ما قيمة هذه الملايين وأنت لا تستطيع الأخذ والعطاء إلا بسند مكتوب ؟

اذهب الى أية محكمة واحضر جلسة أو جلستين ، فان فعلت فسترى القاضي ينفق أربعة أخماس جهده في فحص المستندات واستجواب الشهود

أكان يحتاج القاضي الى ذلك كله لو كان للناس وازع من خُلُق و دين ؟

الله أكبر !

لا يزال من تقاليد القضاة أن يقولوا للشاهد : قل : « والله العظيم أشهد بالحق »

وكم رأينا ناساً يحلفون بالله العظيم ثم لا يشهدون بالحق !

ما قيمة هذه المخلوقات ؟ وما الذي يفرحنا حين

نَعُدُّهم كل خمس سنين فنراهم زادوا مليوناً أو مليونين ؟

ما قيمة هذه المخلوقات وأنت لا تعادى من تعادى ولا تصادق من تصادق إلاّ على حَذَر ؟

ما فضل هذه الملايين وليس فيهم من يعصمه الحياء من الزور ، أو يصده الدين عن البهتان ؟

خاصم رجلاً واحداً ، على سبيل التجربة ، ثم انظر كيف يقع فى عرضك ، وكيف يلغ فى دمك ، وكيف ينسى أنه مسئول أمام الله عما يقترف لسانه النَّجس الخبيث !

إنك لا تستطيع اليوم أن تعادى أحداً فى سبيل الحق ، لأن الدنيا انقلبت إلى مطامع يترفع عنها الحيوان

أترونى أظلم قومى ؟ أنا لا أظلمهم ، وإنما أشرح بلية اجتماعية يشكو منها أحرار الرجال

تقولون إن الدين من مقوّمات الاستقلال ، فدَعُونى

أشرح كيف يكون ذلك ، وأنا أصرّح بأن مانعانى من البلايا الأخلاقية لم يقع إلا بسبب ضعف الدين ، ولو كان الناس يؤمنون بأن الله يعلم ما يضمرون وما يعلنون لكفّ قوم عن إيذاء قوم ، وتورّع فريق عن الإضرار بفريق

— ٣٠ —

الدين من مقوّمات الاستقلال

ولكن أى دين ؟

أهو ذلك الدين الذى يتمثله ناس فى الصلاة والصيام واصطناع شمائل النُّساك ؟

لا ، لا

الدين الذى يبنى الأمم هو الدين الذى يهتمّ أهله أولاً وقبل كل شىء بالفضائل الايجابية

لا يكفى أيها الناس أن تصلوا وتصوموا وترعوا

لِمَا كمْ وتكثروا من التسبيح ، فهذه فضائل ، ولكنها في روحها فضائل فردية

إن الدين الذى يسند الاستقلال هو الدين الذى صوّره الرسول حين قال

« المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضاً »

الدين الذى يصون الاستقلال هو الدين الذى يوحى إليك بأن تكون عون أخيك فى المغيب ، هو الدين الذى يفرض عليك الايمان بأن عرض أخيك هو عرضك وماله مالك ، وهواه هواك

هو الدين المضمّخ بالنفحات الشعرية الذى يوجب عليك أن تفرح لفرح أخيك ، وأن تحزن لحزنه ، وإن تقطعت بينك وبينه الأسباب

هو الدين الذى صوّره شوقى حين قال :

مَقْدُونيا — والمسلمون عشيرةٌ —

كيف الْخُؤُولَةُ فيك والأعمامُ

هو الدين الذى تتمثل به كل فرد من أمتك وكأنه إنسان من أهلك

هو الدين السمح الكريم الذى تغنّى به الرسل والأنبياء

وهذا الدين الذى تتحدث عنه هو الدين الذى يرفع قواعد الاستقلال ، وبدونه لا يُرْفَعُ لأمة بناء

إن الدين الحق يوصى بدفن الضغائن والحقود ، والناس لا يستطيعون التعاون على بناء الوطن إلا إن استطاعوا التعاون على بناء الإخاء

فانظر أين أنت من إسعاد قومك ، فان كنت رجلا يفرح لفرح عدوه ويشجى لشجاه ، فأنت امرؤٌ فيك خُلُقٌ ودين ، وإن كنت لا تفكر إلاّ فى نفسك وفى

أشياعك فأنت من العصبة الوحشية التى أطال فى ذمها الحكماء

— ٢١ —

الدين من مقومات الاستقلال

ولكن أى دين ؟

أهو ذلك الدين الذى يقوم على قواعد الرياء ؟

رباه ، ماذا قاسينا من عنف المرائين !

إن الرياء فى الدين بابٌ إلى الخراب ، لأنه يروض الناس على التكلف والافتعال فيما يأخذون وما يَدَعون ، ويوحى إليهم أن المراوغة لباقةٌ وذكاء

أنا أشتهى أن أُومن ، ولكن الشوق يَخْمُدُ فى قلبى كلما تذكرت أعمال المرائين

أليس من الحق ، أيها الناس ، أن الصراحة فى زماننا خُلُقٌ بغيض ، وأن النفاق يسمو بصاحبه أحياناً إلى أرفع

الدرجات ، وأن المداهنة أصبحت أمضى سلاح ؟

تلك بلية خُلُقية نشير إليها كارهين ، لأنها تهدم قواعد الاستقلال ، ونحن لا نذكر الاستقلال لاهين ولا عابثين ، وإنما نَغْرَم بالاستقلال لأن فيه شرف الشعوب ، ولن تَشْرُفَ أمةٌ تتغاضى عن أعمال المرائين

ولست أوصى باعلان الحرب على أهل النفاق ، وإنما أوصى بالحذر منهم ، لأنهم سُوسُ الخراب فى هيكل الاستقلال

ومن واجب القائمين بالأمر أن يحذروا المنافقين ، لأن النفاق خليق بأن يأتى على بناء الوطن من القواعد ، والعياذ بالله ، وإنما أعنى الرؤساء الذين يصغون إلى كل مُرجف ، ويُصِيخون إلى كل مشّاء بنميم ، أُوصى بالحذر من مَرَضَى الحذلقة والمراءاة وافتعال النزاهة والاخلاص ، أوصى بالفرار من كل مخلوق لا يضحك الا حين يبكى

الناس ، ولا يفرح إلاّ يوم يحزنون

وإلى من أتوجه بهذا النصح ؟

لست أدرى والله إلى مَن أتوجه فقد ساء ظنى بأبناء الزمان ، ولكن لا بأس من توجيه القول إلى من تفضلوا بدعوتنا إلى الكلام عن فضل الدين فى بناء الاستقلال ، ولا بأس من توجيهه إلى أعضاء لجنة التحكيم فى المباراة الأدبية ، فقد أغناهم الله من فضله ، ورفعهم عن مذاهب الضعفاء ، وكلُّ رجل منهم يقدر بلا مشقة على حرب هذا الخلق الذى ينافى الدين الصحيح ويهدم الاستقلال

وليس من الفضول أن أتوجه إليهم بذلك فقد دعونا إلى إبداء ما عندنا من آراء ومقترحات ، ومن الفضل أن يصغى الآباء إلى الأبناء ، وليس أمام الحق فاضل ومفضول

— ٢٢ —

أحب أن أعرف كيف يكون الدين سياجاً لبناء القومية ، وأنا أتمثله قوة معنوية وروحية تضمن سلامة الوطن من الوجهة الداخلية ، فاذا تحابّ الناس وتصافَوْا وتآلفوا كانوا قوة هائلة شبيهة بالأعضاء القوية فى الجسم السليم

إن الأخلاق الدينية فى بناء الأمة تذكرنا بالجراثيم النافعة التى يقوم عليها جسم الانسان ، ألم تسمعوا أن هناك جراثيم فى داخل الجسم تَذِبُ دَفْعَةً واحدةً فى وجه الجراثيم الضارة التى تَفِدُ مع الطعام أو الشراب ؟

كذلك تفعل الأخلاق الدينية ، فان الأمة حين تَصِحُّ فى دينها تظلُّ قوية متينة ، لا يَفِدُ عليها واغِلٌ إلاّ دفعته عنها بقوةٍ وجبروت

وهذا هو التفسير الحق لكلمة من قال : إن الدين

من مقوّمات الاستقلال

— ٢٣ —

ثم ماذا ؟

إن الدين الحق يعصم من الشقاق ، ولن يكون الدين من مقوّمات الاستقلال إلا حين يصون الوحدة القومية من التفكك والانحلال ، ولعل السر فى كره البدع أنها تقسم الناس إلى شيع وأحزاب ، وتغريهم بالتعادى والعناد ، وترميهم بأسباب الفتون

والأمة السعيدة بدينها هى الأمة الموحّدة المذهب ، أما الأمة المشتتة فى نوازعها الدينية فهى أمة ضعيفة الرأى ، منحلة العزم ، لا يُرتجى لها سلام

ولكم أن تستفتوا التاريخ

أتذكرون كيف سقطت بغداد فى أيدى التتار ؟

إن ذلك لم يقع إلا بسبب انقسام الأمة العراقية إلى عصبتين مختلفتين فى الدين

وما لنا نستشهد بالتاريخ ؟ إن فى الحاضر عبرة ، فقد جدّت فى مصر نفسها فتن دينية يعرفها من يخالط السواد فى الأحياء الشعبية ، ويكفى أن يعرف القارئ أن فى القاهرة مساجد يدخلها ناس ، ويُطْرد منها ناس ، وأن فى بعض القرى عائلات تتقاطع أبشع التقاطع بفضل الانقسام فى مذاهب الدين

ولست بهذا أُوجب أن يُقفل باب الاجتهاد ، وانما أوصى بأن تحصر الابحاث الدينية على البيئات العلمية ، وأنصح بأن يُحْرس العامة حراسة شديدة من المشاركة فى الخلافات المذهبية والدينية

إن العوام هم ذخيرة الأمة ، ومنهم يتكون الجيش وبفضلهم تقوم المتاجر والمزارع والمصانع ، فمن الحزم أن

يعيشوا على عقيدة واحدة ومذهب واحد ، ومن البلاء أن تتكرر المأساة التى وقعت فى شبين الكوم منذ عام ، والتى تقع أشباهها فى كل يوم ، وإن لم تدوّن أخبارها فى محاضر البوليس

ومن الحزم أن تسارع الحكومة إلى حراسة الأهلين من انقسامات الصوفية ، فان التصوف أصبح فى أكثر البلاد من أسباب الشقاق ، مع أنه فى الأصل من أسباب الألفة والصفاء

ولا يمكن تحقيق هذا الغرض إلا بتخير من يقومون بالدعايات الصوفية ، ويجب أن يكونوا من أهل النزاهة والاخلاص . أما جعل الديار المصرية مسرحاً للمفاضلة بين الخلوتية والشاذلية فهو باب من الشر لا يعرف أخطاره إلا من عرف عقول العوامّ ورأى كيف يختصمون ويقتتلون لأتفه الأسباب

— ٢٤ —

يظهر أنكم ترتابون فى خطر الشقاق

تفضلوا بتأمل هذه الصورة :

يذهب المصلون إلى المسجد الجامع يوم الجمعة فيسمعون سورة الكهف بقلوب لا تخلو من قلق ، لأن فيهم من يراها سنة ، وفيهم من يراها بدعة ، فاذا أذن المؤذن انقسموا إلى فرقتين : فرقة تبيح السلام على النبي بعد الاذان وفرقة تأباه ، فاذا قامت الصلاة رأينا من يُسِرُّ القراءة ، ورأينا من يكتفى بقراءة الامام ، فاذا انتهت الصلاة رأيناهم جماعتين : جماعة تصلى الظهر وجماعة تنصرف

وهذه الصورة لا يعرف خطرها المثقفون من أهل الحواضر لأنهم لا يقيمون وزناً لأمثال هذه الشؤون ، إذ كانت عقولهم أرفع من أن تختصم فى غير مُختصَم ، ولكنها تبدّد

قُوَى الأهالى فى الريف ، وتهدُّ من بناء الاستقلال

وأنا أقترح أن يَطِبَّ أهل الرأى هذا الجرح ، وأتمنى أن تعيش الأمة كلها على مذهب واحد فى الأصول والفروع ، على نحو ما كانت تركيا فى العهد القديم ، فقد كانت فى مسائل التوحيد على رأى واحد ، وكانت فى التشريع على مذهب واحد ، ومن المحقق أن وحدة تركيا فى نوازعها الدينية ، كانت من أهم الأسباب فى سلامة وحدتها القومية

أقول هذا وأنا أعرف أن خطر الانشقاقات المذهبية فى مصر صائر إلى الزوال ، ولكن لا بأس من التنبيه إلى ما بقى من أوزاره ليحذره المصلحون

— ٣٥ —

وتظهر بشاعة الانقسام إذا تذكرنا ما فقدنا بسببه من النعيم

أتذكرون السر فى تفضيل صلاة الجماعة ؟ أتذكرون السر فى الدعوة إلى اجتماع أهل البلد الواحد ، فى مسجد واحد ، مرة فى كل أسبوع ؟ أتذكرون السر فى التشويق إلى أداء صلاة العيد فى ضاحية البلد ليتيسر للناس جميعاً أن يتصافحوا بالأيدى والقلوب ؟

تذكروا السر فى ذلك لتعرفوا أننا حُرِمْنَا نعيماً كثيراً منذ ابتلينا فى ديننا بالخلاف

وليس هذا كل ما حُرمناه ، فقد انعدمت صلاة الجماعة أو كادت ، ومضت صلاة العيد إلى اللحاق بذكريات التاريخ ، ولم يبق لنا نصيب من أسباب الصفاء

ليت من يختصمون ويقتتلون بسبب المنازعات الأدبية والسياسية يعرفون السبيل إلى المساجد ! إنهم لو فعلوا لكان من اليسير أن تذهب أحقادهم حين يتصافحون عقب الصلاة

ليت من يتعادَوْن يلتقى بعضهم ببعض فى صلاة العيد ! إنهم لو فعلوا لدفنوا أحقاد العام الماضى ، وقلّدوا العام الجديد وساماً من ودّ جديد

أليس الصفاء الذى نشير إليه من بعض ما يصنع الدين فى بناء الاستقلال ؟

لقد حاول سموّ الأمير عمر طوسون منذ سنين أن يجمع أهل الاسكندرية فى مكان واحد فى أيام الأعياد ، وكانت فكرة سامية ، ولكنها لم تنجح مع الأسف الشديد

فما الذى يمنع من إمضاء هذا الرأى مرة ثانية باسم الدين ؟ ما الذى يمنع من جعل الأزهر ملتقى لأقطاب البلاد ، فى أيام الأعياد ؟

بل ما الذى يمنع من خَلْق صورة جديدة للتشريفات الملكية ، بحيث تكون موسماً أغرّ تلتقى فيه القلوب والأهواء ، ويتنادى فيه الناس باسم الحق والدين ؟

إن أكبر ما يعاب به أهل مصر هو موقفهم موقف المتفرجين فى أيام الشقاق ، ولو عرفوا أن دينهم يوصيهم باصلاح ذات البين لوَقَوْا مصر كثيراً من أسباب الفتون

إن الدين من أهم القُوَى فى خَلْق التماسك الاجتماعى ، والتماسكُ الاجتماعىُّ أهم ما يُحْفَظُ به بناء الاستقلال

— ٣٦ —

وليس هـــذا كل ما يصنع الدين فى بِناء الممالك والشعوب ، فهناك مزية أساسية هى خَلْق الشجاعة فى نفوس الناس

الشجاعة ؟

أى شجاعة ؟

نعم ، الدين يخلق الشجاعة فى النفوس ، ولولا الايمان بعدل الله ورحمتـه لتهدَّمتْ عزائم ، وتحطمتْ قلوب ، وانطفأتْ أرواح

إن الرجل المؤمن يلقى المكاره باسماً ، ويوقن فى كل لحظة بأن الشر لا يطارده إلا لحكمة سامية ، وبذلك يظل سليم القلب والوجدان ، فيحيا حجراً سليما فى بناء الاستقلال

الرجل المؤمن لا يتهيب العيش لأنه يعرف أن الرزق بيد الله ، وتَهَيُّبُ العيش مِحْنَةٌ خُلُقِيَّةٌ ابتُلِيَ بها شبان هذا العصر ، فانصرفوا عن الزواج فراراً من الذريّة التى تعرضهم فيما يزعمون للفقر والإملاق

نريد لمصر جيلا مؤمناً ينتصر وهو متوكل على الله ، فينتصر وهو شاكر ، أو ينهزم وهو صابر

نريد جيلا يؤمن بأنه مسئول أمام الله قبل أن يكون مسئولا أمام الناس

نريد جيلا يبحث أولاً عن الحق ، ثم يُقْدِمُ إقدام الشجعان واثقاً بأن النصر نصيب المؤمنين ، وأن العاقبة للصابرين

نريد جيلا يستهين بطغيان الطاغين ، وكيد المفسدين ولؤم الحاقدين ، لأنه يؤمن بأن الله أكبر ، ويوقن بأنه سَيَمُنُّ على الذين استُضعِفوا فى الأرض ويجعلهم أئمة ويجعلهم الوارثين

والشجاعة التى يخلقها الدين فى القلوب هي أساس كل خير ، فان الرجل الذى لا يملك زمام نفسه فى حياة البيت ، لا يصلح جندياً فى الجيش . ولا يمكن لمن عجزوا عن سياسة أنفسهم أن يصلحوا لسياسة أمتهم ، ومن عجز عن الكفاح الشريف فى سبيل الرغيف لن يقوى أبداً على الجهاد المشروع فى سبيل الوطن الغالى

وكيف يُصان الاستقلال إن لم تَحُطْه عزائمُ بُنِيَتْ على الايمان الصحيح ، الايمان بأننا لم نُخْلَق عبثاً ، وأن النضال فى سبيل المجد الروحى والوطنى من أشرف الغايات فى الوجود ؟

— ٢٧ —

ومصر من أقدر الامم على تقوية المقيدة الدينية ، ففيها الأزهر الشريف ، وعندها من رجال الدين ألوف وألوف

أفأستطيع أن أقول كلمة عن واجب الأزهر الشريف؟

ما أحسبني أخرج عن الموضوع ، فان لجنة التحكيم دعت الى إبداء ما عندنا من آراء ومقترحات. وأنا أعوذ بالله من الفضول

الأزهر يستطيع أن يضاعف جهده فى خدمة اللغة والدين

يخدم اللغة لأن فى إذاعة النصوص الاسلامية خدمة لغوية ، وليس من الاسراف أن نحكم بأن حياة اللغة بين الأهلين ترجع الى حفظ القرآن وتلاوته فى المآتم والأفراح ، وللمدائح النبوية فضل فى إذاعة النصوص

الأدبية ، والألفاظ اللغوية ، فان المنشدين الذين يتغنون بمدح الرسول تركوا فى أذهان الناس مئات من الصور الشعرية ، وعلموهم كثيراً من طرائق التعبير ، وأمدّوهم بكثير من المعارف فى حوادث التاريخ

فما الذى يمنع من إنشاء لجنة أزهرية للمطبوعات الدينية ؟

ماالذى يمنع من نشر مجموعة لطيفة نذيع بها نحو ألف حديث من كلام الرسول ، ونطبع منها ملايين توزع بثمن يقدر عليه جمهور الفقراء ؟

ما الذى يمنع من نشر مجموعة تحوى أروع الأخبار ، أخبار الصدّيقين والشهداء ؟

وما الذى يمنع من اختيار طائفة من الأحاديث والآثار تكون مادة للمطالعة فى المدارس الابتدائية والثانوية ؟

— ٢٨ —

وبهذه المناسبة أصارحكم بأن الصلة كادت تنقطع بين الأزهر ووزارة المعارف ، بل هي انقطعت فعلا منذ أعوام طوال ، وأخشى أن تكون هذه القطيعة بداية العداوة بين الحياة المدنية والحياة الدينية ، وهى عداوة خطرة العواقب ومن واجبنا أن نتقى شرها منذ اليوم

وأنا أقترح أن يُلْحَظَ فى التلميذ أنه سيكون عضواً فى المجتمع الشعبى قبل أن يكون عضوا فى المجتمع المثقَّف ، والمجتمع المثقف قد لا يضيره أن يجهل أصول الدين ، لأن حياته فى الأغلب موصولة بالمدنيـة الغربية التى تناستْ خطر الدين

ولـكن ما هو المجتمع المثقف الذى نعتمد عليـه فى بناء الاستقلال ؟

أهو تلك الفئة القليلة الضئيلة التى تمضغ الأخبار فى

القهوات . ولا تصلح لاقامة مصنع أو متجر أو مزرع ، ولا تقوى على مواجهة الخشونة فى حياة الجندية ؟

المجتمع الشعبى هو الأصل ، فلنَرُضْ أبناءنا على فهم ما فيه من قواعد وأصول ، وهو لا ينهض إلا على أساس الدين

— ٣٩ —

وهذا يفرض علينا أن نفكر جدياً فى مصير التربية الأزهرية فان الأزهريين لهذا العهد لم يعد يهمهم أن يتصلوا بالحياة الشعبية ، فقد انتهبوا كلمة « المستقبل » من تلاميذ المدارس ، وأخذوا يترقبون حظوظهم فى المصالح والدواوين ، وذلك من أهم المقاتل فى حياة الاستقلال

لقد آن للأزهر أن يعرف واجبه ، آن للأزهر أن يفكر فى استرجاع سلطانه الذى ضاع

أين الأيام التى كان يحتفل فيها الأهالى بقدوم

الأزهرى الصالح الذى يحدثهم عن الله والرسول ؟

أين الدروس التى كنت أشهدها وأنا طفل بعد صلاة العصر فى رمضان ؟

أين الآمال الحلوة التى كنا نسمعها من العلماء عن مصير الصالحين ؟

أين ، أين تلك الوسوسة الْخُلُقية الظريفة التى كانت تنتاب من يخرج على بعض آداب الصلاة أو الصيام ؟

أين الزواجر التى كان يرتعد من هولها من يقترفون إثم النميمة والاغتياب ؟

أيها الناس !

أنا أشتهى أن أومن ، فخذوا بيدى موفّقين الى رحاب الدين ، الدين السليم من أوضار الشِّرك والرياء

— ٣٠ —

والعادات ؟ أهى أيضاً من مقوّمات الاستقلال ؟

نعم ، العادات من مقومات الحياة فى الممالك والشعوب ، ولكن كيف ؟ إن ذلك يحتاج الى تفصيل

ولنبدأ فنذكر أن العادات كلمة قديمة كان يسميها ابن خلدون عوائد ، وهى اليوم تعرف باسم التقاليد ، ويكاد العُرف الحاضر يفرق بين اللفظتين : فالعادات للأفراد ، والتقاليد للجماعات والهيئات ، فالعادات شخصية والتقاليد جماعية

ويغلب على الظن أن الذين وضعوا العنوان تحاموا كلمة التقاليد عامدين لسبب طارئ لا يخفى على اللبيب

ولكن نحن لا نرى بأساً من الحرص على كلمة (تقاليد) لأنها فى العُرف الحاضر تنفرد بمدلول خاص ، وسيقول الناس (تقاليد جامعية) و (تقاليد دستورية) وإن تحاماها مَن فرضوا هذا العنوان .

— ٣١ —

والعادات تميز الأمم بعضها من بعض ، وهى من أجل ذلك تُعَدُّ سِمَة شخصية ، والسمات الشخصية من أظهر الدلائل على حيوية الشعوب

ولنداعب الموضوع قليلا فنذكر أن لكل أمة أذواقاً فى الطعام والشراب ، ففى مدينة باريس مثلا يرى المتطلع مطعماً تركياً ، ومطعما نمسوياً ، ومطعما صينياً ، ولكنه لن يجد مطعماً مصرياً ، لأن المصريين ليس لهم مذاهب فى الطعام والشراب ، وأكاد أجزم بأن مصر لا تنفرد فى أطعمتها بغير البصارة والفول المدمّس والفطائر فطائر المواقد والأفران

ويحار الشاب المصرى حين يفكر فى إنشاء مطعم بمدينة أوربية ، لأن مطعمنا اندمج فى المطعم التركى منذ أجيال ، ولم تبق لنا خصائص ، حتى فى أوانى الطعام

والشراب ، ولنا فى ذلك عذر مقبول ، فان موقع مصر الجغرافى جعلها ملتقى الوافدين من الشرق والغرب ، وفرض عليها الأخذ من كل مدنية بنصيب

وإنما خصصت هذا الجانب بهذه الفقرة لأدل القارئ على قيمة الخصائص الذاتية ، ولأستطيع التحدث عما تعوّد الناس فى هذه البلاد

— ٣٣ —

وما قلته عن الدين أقوله عن العادات ، فالعادات لا تكون من مقوّمات الاستقلال إلاّ اذا كانت صوالح ، أما العادات السيئة فهى من أسباب الانحلال

والمهم فى العادات الصوالح أن تصبح قوانين ، وأن لا يخرج عليها إلاّ المفسدون ، ومتى تأصّلت العادات الصوالح وأصبحت رعايتها قانوناً قومياً شعر الناس بقوة فى حيويتهم الذاتية ، وأصبحوا بفضلها كالبنيان المرصوص

يشد بعضه بعضاً ، وكان حرصهم عليها من مقوّمات الاستقلال

— ٣٣ —

كان من عادات المصريين أن يبدأ بعضهم بعضاً بالتحية على الطريقة الاسلامية

أما اليوم فقد انقرض هذا التقليد الحميد ، وأصبح المؤمن لا يحيّي المؤمن إلا إذا سبق التعارف ، وتلك عادة نقلناها عن الأوربيين ، وحملنا وزرها الثقيل

وأنا أوصى بالرجعة الى ذلك التقليد الجميل ، لأن له مزايا فى تقريب القلوب بعضها من بعض ، ولأنه يشعر بالاخوّة الروحية والوطنية ، ويخلق للرجل ألوفاً من الاخوان

أنت فى هذا الزمن لا تواسى غير مَن تعرف ، فلو رأيت مأتماً فى طريقك لتحاميت الذهاب اليه ، إلا أن يكون أهله من المعارف والأصدقاء

ولم يكن الحال كذلك فى العصر الحالى . فقد كان من الواجب على الرجل أن يمشى فى كل جنازة ، وأن يواسى كل محزون ، وأن لا يخص ببره أصدقاءه وعارفيه ، وكان من عادات الناس أن يصافحوا كل من يلقون فى أيام الأعياد ، وأن يتبادلوا التهانى وإن التقوا بلا معرفة على ظهر الطريق

ولست فى حاجة الى توكيد القول بقيمة هذا التقليد فى ربط الأواصر القومية ، فهو أوضح من أن يحتاج الى بيان .

— ٣٤ —

وتظهر قيمة ذلك التقليد الحميد إذا تذكرنا تفاهة ما صرنا اليه فى تحيات الاعياد ، فعهدى بالمصرى الحديث يركب سيارة ويطوف بأحياء المدينة فيترك لكل صديق بطاقة ثم ينصرف من دون أن يرى أحداً ، ونسى الناس

قيمة المصافحة والتقاء الأعين والقلوب

قد تعتذرون بأن الشواغل كثرت وصار الوقت أضيق ، ولكن ما رأيكم فى أننا غلَوْنا فى ذلك غُلُوًّا صار بنا الى السخف ، والعياذ بالله من قلة الذوق !

ألا تعرفون أن ترك البطاقة عند البواب فى أيام الاعياد صار أقْوَمَ من التحية بالتليفون ؟

ألا تذكرون أن التحيات الموسمية لم يَعُدْ لها قيمة إلّا فى حساب مصلحة البريد ؟

ألا تذكرون أن المجاملات الواجبة صارت فى صميمها أعمالاً آلية لا تغنى ولا تفيد ؟

وما قيمة هذه المتاعب فى وَصْل القلوب ؟

ما قيمة البطاقة الصّماء التى تُمَزَّقُ بعد نقل العنوان ؟

ما قيمة الأعياد إن لم نَتَنَسَّم بها أرواح الأُنس بتجديد الصِّلات ؟

لقد كان الناس يهتمون بالعيد فينظمون القصائد ، ويحبّرون الرسائل ، حين يعزّ عليهم التلاقى . أما اليوم فقد اكتفينا بالاشارات الدبلوماسية التى نقلناها عن أهل لندن وباريس ، وفاتنا أن لكل بلد تقاليد ، وأن ما يحسن هنا قد يقبح هناك

— ٣٥ —

وكان من عاداتنا أن نقيم السهرات فى البيوت ، أما اليوم فقد انتقل السامر إلى القهوات

وليتكم تعرفون أىّ أُنس فقدنا منذ حَرَّمْنا المنازل بَهْجَةَ الأسمار والأحاديث ؟

ليتكم تعرفون خطر ما نعانى من التبذل بالجلوس فى المشارب والقهوات ؟

ليتكم تعرفون كيف خَفَّتْ موازين الناس منذ نفروا من هيبة الْعَرِين ؟

لقد كانت لياليا كلها مواسم تشبه ليالى رمضان ، فصرنا لا نتلاقى إلاّ فى أندية تثقلها الكلفة ، ويُموزها الأُنس ، وينقصها الصفاء

كانت بيوتنا منتديات روحية يَعْرِفُ بها أطفالنا مَن نأْلَفُ ومَنْ نحبُّ ، فأصبحت مُقْفِرة موحشة ، وأصبح الصديق لا يلقى الصديق إلاّ سأل : أين تسهر وكيف تراك ؟

والويل كل الويل لمن يحدث أبناء الزمان بأنه لا يسهر إلاّ فى البيت وأنه يكرهُ التبذل فى المشارب والقهوات

وازِنُوا بين الحالين ، وانظروا أى المذهبين أفضل فى بناء الاستقلال

— ٣٦ —

والحرص على التقاليد يعدُّ باباً من الحرص على التراث القومى ، لأن التقاليد الصوالح لم تكن إلاّ ثمرات لجهود

الألوف من المصلحين فى مختلف الأجيال . وما نراعيه من الآداب فى غدواتنا وروحاتنا ، وأفراحنا وأحزاننا : ليس إلاّ دروساً تعب فى نشرها الأسلاف . والعاقل يحرص دائما على الأساس السليم الذى تركه الأجداد ويبنى عليه فى اطمئنان ، ولا يفكر فى زعزعة التقاليد إلاّ مَن يجهل ما سيحتاج إليه من الجهد فى تعويض الأدب المفقود

فرعاية التقاليد تنفع من وجهين :

تنفع لأنها سنادٌ حَيَوِىٌّ فى صيانة المجتمع

وتنفع لأنها توفر علينا جهوداً كثيرة حين نفكر فى تعويضها بآداب جديدة

وليتذكر القارئ دائما أنى أعنى التقاليد الصوالح ، أما التقاليد الفواسد فحربها من أهم ما يُعنَى به المصلحون

— ٣٧ —

ولا ينبغى أن ننسى الاشارة إلى مقام مصر الحديثة

فى عالَم التقاليد ، فهى اليوم تعانى أزمة لم تعرفها من قبل ، لأن مصر ليس فيها جمهور واحد ، وانما هى جماهير كثيرة ينظر بعضها إلى بعض نظرات مختلفة لا تخلو من قلق وامتعاض

واصطراع التقاليد فى مصر يضيّع على أهلها كثيراً من الجهد والوقت ، وأكاد أجزم بأن فى كل بيت جيلين يقتتلان ، فالشاب الذى يشاهد الأشرطة السينمائية ويرى فيها ما يرى من تقاليد أهل الغرب فى حياة الاجتماع ، هذا الشاب لا يتأتى له الانسجام مع أهله وذويه فى أكثر الأحيان

ولا يمكن الغضّ من قيمة هذه النظرة ، ولا ادّعاء أنها خيال كاتب يتوهم ما لا يكون ، فقد أنفقنا من الورق والمداد ما يقدّر بالألوف من الجنيهات فى سبيل الجدل حول السفور والحجاب ، وقضينا سنين نختصم حول ما يقدّم

إلى البنات من العلوم . وسنقضي أعواماً كثيرة في نضال الى أن نتفق على ما تجب مراعاته من محمود التقاليد

ومعاذ العقل أن أنتظر أن تخلو الدنيا من الشغب حول المبادئ والآراء ، ولكن لا مفرّ من التنبيه إلى أننا جاوزنا حد المعقول من الخلاف

على أنه لم يكن بدٌّ من وقوع ما وقع ، فقد أرسلنا إلى أوربا بعثات علمية ، واضطُررنا اضطراراً إلى نقد ما كنا عليه من شتى التقاليد

وأنا أطلب المستحيل حين أوصي بفضّ هذا الخلاف ، فهو خلاف يوجبه ظرف الزمان والمكان ، ولن تستريح مصر إلا يوم تنحاز انحيازاً تاماً إلى إحدى المدنيتين : الشرقية أو الغربية . وأعتقد أن هذا أمل عزيز المنال ، ففي مصر قوتان : قوة الجامعة المصرية وقوة الأزهر الشريف والجامعة المصرية لن تسكت أبداً عن الدعوة إلى المدنية

الغربيـة ، لأنها أنشئت لذلك ، ولأن فيهـا قُوَّى أدبيـة من الأساتذة الأجانب ، وهم ينقلون إليها تقاليد الغرب بلا انقطاع . ويزيد فى خطر الجامعة المصرية أنها أُمنية قومية وأن مصر تحتاج بالفعل إلى مَدَد من الحيوية الغربية

ويزيد فى هذا الخطر تشوفُ الشبان إلى أدب أهل الغرب ، وشوقُهم إلى الجرى فى ميادين جوت وبيرون ولامرتين ، وقد جَرَوْا فى ذلك أشواطا يعرفها كل من يتلمس أخبارهم فى حياة المجتمع ، وينظر ما درجوا عليه فى مذاهب الفكر والمعاش

والأزهر لن يسكت أبداً عن الدعوة إلى المدنيـة الشرقية ، ولن يكفَّ أهله عن التذكير بمجد الأسلاف .

ويزيد فى خطر الأزهر قُرْبُ أهـله من قلوب الجماهير الشعبية ، وقدرته على بث الحبائل والأشراك للمدنية الغربية

وقد ظن ناس أن الأزهر انهزم وأن مدنية الغرب لن تتركه يعيش ، ثم تبينوا بعد لأى أنهم كانوا واهمين ، وأن الأزهر نسج شبكة من الوعاظ سيطر بها على الناس فى أرجاء البلاد

— ٣٨ —

إذن لن نصل إلى وحدة التقاليد ما دام فى مصر جامعتان لا تلتقيان ، وكيف تلتقيان وقد فصل بينهما النيل : فقامت إحداهما على الضفة الشرقية ، وقامت أخراهما على الضفة الغربية ، واختلاف المواطن يؤذن باختلاف الأرواح !

لا تحسبونى أمزح ، فأنا أوقن بأن هاتين الجامعتين ستعيشان متعاديتين ، وستظلان من أسباب الفرقة فى العادات والتقاليد ، وسيظل الأزهرىُّ يشعر بالغُربة حين يدخل الجامعة المصرية ، والجامعىُّ يشعر بالغربة حين يزور الأزهر الشريف

فما الذى نصنع لصيانة الاستقلال من زوابع هذا الخلاف ؟

أعتقد أن خير الوسائل لذلك هى الدعوة إلى سعة الصدر ومرونة العقل، ومن الممكن أن نروض الجيل الجديد على فضيلة التسامح، ونربيه على فهم الواقع، والاطمئنان الى أن الله لم يخلق الناس أمة واحدة ، وانما لوّن فيهم وصنّف لحكمة يدركها العاقلون

يجب على أولى الرأى أن يحسموا الخلاف بين هذين الجيلين اللّذَيْنِ يعيشان فى بلد واحد، ويصبغان العادات والتقاليد صبغات مختلفات الألوان ، ويخلقان الشغب والقلق فى كثير من الطبقات ، ويردّان الأمة الى جيشين يصطرعان

وكل خطوة فى هذا السبيل تصون بناء الاستقلال من معاول الهادمين

تذكروا هذا ، أيها المصلحون ، واعلموا أن لا نجاة لهذا البلد إلا بمحو العصبية التي تشب نارها من حين الى حين بسبب اختلاف التقاليد

— ٣٩ —

وأنا مع هذا أعترف بأن اختلاف الناس فى العادات يخلق بينهم ضرباً من المباراة فى الحياة العقلية والخُلُقية ويحضّ كل فريق على السبق ، ويسوقه سوقاً إلى ميادين النضال

هذا حق

ولكن احذروا خطر الفرقة والشقاق

إن مهمة المصلح فى هذا العصر هى التوفيق بين هاتين الطائفتين، ولعل التوفيق المنشود يمزج بين ما تنافر من التقاليد ، فيصل بنا إلى تقاليد جديدة تجمع بين حِدّة الغرب ورفق الشرق ، ويومئذ نشعر بأننا بنينا صرحاً من

جيد العادات نعمون به الاستقلال

ومن المؤكد أننا خطونا فى هذا السبيل بعض الخطوات ، فعندنا أساتذة يدرّسون فى الأزهر وفى الجامعة المصرية ، وهؤلاء الأساتذة يوفقون بين العقليتين من حيث يشعرون أو لايشعرون

ومن عجيب المصادفات أن أكثر الذين يؤثرون فى طلبة الجامعة هم فى الأصل أزهريون ، وأن الأساتذة الذين يؤثرون فى طلبة الأزهر أكثرهم جامعيون

ومن هنا نعرف أن التوفيق بين العقليتين تسوقه الظروف بلا عناء ، وأن الأمل فى وحدة التقاليد ليس بعيداً إلى الحد الذى توهمناه منذ لحظات

— ٤٠ —

أقول هذا وأنا أعرف أن الأزهر ينفر نفرة شديدة من التقاليد الجديدة

ولكن أى « أزهر » ؟ هو الأزهر الذى يمثله فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى الذى يكره أن يقيم الأزهريون أندية رياضية ، ويأبى عليهم أن يتبذلوا فى ملابس اللاعبين ، كما صرح فى حديث نشرته جريدة البلاغ

ولكن الأستاذ الأكبر يعرف جيدا حكم الزمن فى تطور التقاليد ، ولذلك رأيناه يعلن أنه لا يعارض فى اشتراك الأزهريين فى الأندية الرياضية ، ما داموا بعيدين عن حرم الأزهر الشريف

والحق أن الأزهريين يتحرقون شوقا إلى الاندماج فى البيئات المدنية ، وسيفضى بهم ذلك الشوق إلى إحدى اثنتين : الفناء فى تلك البيئات ، أو النفرة منها نفرة أبدية يعلنون بها حربا لا صلح بعدها ولا سلام ، وفى التقاليد عداوات تشبه عداوات الأجناس

وقد اتفق لطلبة الأزهر أن مثلوا رواية مجنون ليلى منذ شهرين ليتمّ لهم ما يريدون من التشبه بطلبة الجامعة المصرية ، ولكنهم وقعوا فى خطأ سخيف حين مثّل أحدهم (ليلى) بلا تحرج ولا حياء

وما أحب أن أستقرى الشواهد على صحة ما أذهب إليه من سعى الطبقات المختلفة بعضها إلى بعض سعياً حثيثاً سينتهى بالتلاقى أو الاقتراب

وكل ما أرجوه أن نظفر من هذا كله بمزاج جديد من التقاليد نصون به الاستقلال ، ونأمن به عدوان الفرقة وطغيان الشقاق

— ٤١ —

ولكن كيف يرى فضيلة الأستاذ المراغى أن طلبة الأزهر يخرجون على الوقار حين يلبسون ملابس

اللاعبين ؟ وكيف يسكت سعادة لطفى السيد باشا عن ذلك فلا يصون طلبة الجامعة من التبذل حين يخلعون ملابسهم و يلبسون أقمصة الألعاب ؟

ألا ترون فى مذاهب هذين العاملين شيئا من التنافر والتضادّ ؟

إن هذه الظاهرة فى اختلاف الآراء ترشدنا إلى مسألة خطرة فى حياة العادات : هى اختلاف الأزياء ، ولابدّ لنا من معركة فاصلة نصير بها إلى زىّ موحّد ، ونقضى بها على أصل الخلاف بين مذاهب التقاليد فى الحياة المصرية

إن أقمصة الألعاب لا تهتك وقار الأزهريين إلا لأن الناس لم يتعودوا رؤية رجال الدين فى غير العمائم والجبب والقفاطين

وليس هناك تعليل معقول غير اختلاف الأزياء ،

ولو صارت الأزياء إلى أنماط موحّدة لما كان هناك ما يوجب الشعور بالوحشة من انضمام الأزهريين الى صفوف اللاعبين

وقد سمعت أن تركيا لا تبيح لرجال الدين أن يلبسوا الملابس الافرنجية ، أو هي لا تبيح الملابس الشرقية لغير رجال الدين

وهذه فيما أعتقد تقاليد نصرانية ، لأن النصرانية تعترف بهيئة الكهنوت ، أما الاسلام فلا يعرف ما يسمى بالطائفة الدينية ، كما بيّن سعادة الاستاذ لطفي السيد باشا في مقال نشره في (الجريدة) منذ أكثر من ربع قرن

فما الذي يفرض علينا أن نعتبر الأزياء الشرقية أزياء دينية ؟

وما الذي يوجب أن يظل الأزهريون محبوسين في ملابس يحاربها التمدن الحديث !

وما الذى يمنع من توحيد الأزياء فى هذه البلاد ليكون ذلك تمهيداً لتوحيد التقاليد ؟

لقد ظهرت طلائع الثورة على الأزياء الشرقية منذ عشرين سنة ، فلبس الملابس الأفرنجية مشايخ مشهورون جداً ، أذكر منهم طه حسين وعلى عبد الرازق وأحمد أمين وأذكر منهم صديقنا الشيخ زكى مبارك الذى لا أتصور اليوم كيف كان يلبس الجبة والقفطان !

ومنذ عشر سنين قامت ثورة فى دار العلوم حار فى قهرها رجال المعارف وانتهت باصطناع أساتذة اللغة العربية الملابس الافرنجية

ومنذ سنتين فكر معلمو المدارس الالزامية فى هجر الملابس الشرقية ، فقاومهم وزير المعارف الأسبق معالى الاستاذ حامى عيسى باشا

ومنذ تسع سنين فكر طلبة الجامعة المصرية فى لبس

القبعات فقاومهم سمو الأمير عمر طوسن والمغفور له سعد باشا زغلول

ومن كل ما سلف نعرف أننا نعاني أزمة من أزمات التقاليد : هي مسألة الأزياء

فما أنتم صانعون يارجال العصر الحديث ؟

حدثوني ماذا تصنعون ؟ أتحاربون توحيد الأزياء فتنهزمون كما انهزمتم يوم ثورة دار العلوم ؟ أم تصطنعون الرفق فتتركون التطور يأخذ مجراه وتنجون من الاصطدام بصخرة التمدن الحديث ؟

أحبُّ أن أعرف ما أنتم صانعون ، فان الحياة حركة ، والويل كل الويل للواقفين !

— ٤٣ —

ما لنا نبعد عن قصد السبيل ؟ نحن نتكلم عن العادات باعتبارها من مقوّمات الاستقلال ، فلنعترف أولاً بخطر

التطور ، ثم لنجزم بأن المنفعة القومية تأبى مقاومة ما ليس منه بدّ ، فلم يبق إلا أن نبذل ما نستطيع فى رعاية التطور بحكمة وعقل : فلا نقاومه ولا نشجعه ، ولا ننهى عنه ولا ندعو اليه ، وإنما نترك الأمة تتقبل وَحْيَ العصر فى رفق ولين ، فتأخذ ما يزيدها حيوية ، وتصدف عما يَفُلُّ من قيمتها الذاتية . . . وهل كانت العمائم التى يلبسها الازهريون عربية ؟ إنها قبطية ، ولكنهم لا يعلمون !

ونحن بهذا الحياد نضمن للامة سلامةً تنفسها فى المعاش فلا نبدّد قواها فيما لا يفيد

واسمحوا لى أن أنص بصراحة على أن التمسُّك بالتقاليد القديمة من سمات الضعف ، ولا يتغنى بالقديم ويحرص عليه بلا تعقل غير الضعفاء

فأقبلوا على تقاليد العصر الحاضر بلا خوف ، إلا أن يكون فيها ما ينافى الأدب الحق والدين الصحيح

ولكن احذروا الوقوع فيما يقع فيه المتطرفون ، فانكم أضعف من أن تحتملوا ما وقع بالامم العاتية التى ثارت ثورة عنيفة على مأثور التقاليد . وهل تحتملون ما احتملت الأمة الروسية والأمة التركية ؟

والمهم أن تفهموا أن التقاليد لا تراد لذاتها ، وانما تراد لما فيها من نفع ، فاجعلوا المنفعة القومية رائدكم فيما تأخذون وما تَدَعُون . والله يهديكم سواء السبيل

* * *

أما بعد

فقد آن للقلم أن يستريح بعد هذه الأشواط . وكنت رأيت أن أشترك فى (المباراة الأدبية) لأجرب العدل فى وطنى مرة بعد أن جربته ألف مرة ، وأنا لا أستبعد أن أفوز فى المرة الأولى بعد الألف ، فمثلى لا ييأس من العدل فى وطنه وإن تفطرس الظلم واستطال

أما الآن — وقد رأيت كيف هداني الله الى رياضة هذا البحث المفتوح — فاني أرد القلم الى غمده مطمئنا بعد أن رأيت كيف جال بفضل الله جولة الجياد

وحسبي من الفوز أن يعترف سعادة مدير الجامعة المصرية بأن فراسته لم تخب في تلميذه القديم :

زكي مبارك